تداعيات الرّسول
بباب الثلاثين

محمّد الهادي الجزيري

مُنْهَكاً كنشيد البلاد أراني
ولم أتخطّ الثلاثينَ بَعْدُ
ولم أرتشفْ شفةَ النّار إلّا قليلاً ولم أشدُ

لم أتهجَّ حروفَ القصيدة بَعْدُ
ولم أنتصرْ، لم أكنْ، لم أطل وجه من لا تسمّى...
وبَعْدُ
سأغفو قليلاً لأنسى
فإنْ متُّ في غفوتي دثّروني بأنثى
وقولوا لتونس:
«فـزّاعـةٌ للعصـافـير أنتِ وقـد كـان ضيفاً»
وقولوا لمن لا تسمّى:
«لكم كان طفلاً وكم كنت منفى»
وقولوا وقولوا إذا متُّ طبعاً
ولكنّني لا أزول
لأنّي أحبّ الحيـاة كـما لا يحبُّ الحيـاةَ رسولُ!
وأمشي يميناً وأمشي يساراً
فكلُّ الدّروب لمن كان مثلي حقولُ
أسيرُ كما تشتهي دهشتي
وأقطفُ ما طـاب لي من فواكـهَ... أو ما أطولُ
وأفعلُ ما عنّ لي:
أتجذَّرُ، أنبتُّ، أؤمنُ، أرتدُّ، أرضى، أثورُ
أُغنّي، أُصلّي، أَعبُّ، أَصومُ
أُهـاجـر إن شئتُ من حـانـةٍ نحـو صومعةٍ
أو أُدلّي لأنثى الرّصيف حبالي
وأُرخي عليها جمالي
فيدعو ليَ الشّعراءُ ويدعو عليَّ البلدْ

أحبُّ الحياة كما لا يحبُّ الحياة مُحِبْ
وأحفظ أسـماءَهـا الأزليّـة عن ظهـر قلبْ
هي المرأةُ المُتكبِّرة المشتهاة
هي القطّةُ المتوحّشة الشبقه
هي الأمُ والله والصّلوات
هي الطفلُ واليرقة
هي النّارُ والخمرُ والأغنيات
هي الأبجديّة والورقه
هي اللّانظامْ
هي اللّاسُلَطْ
هي اللّايمينْ
هي اللّايسارْ
هي اللّاوسطْ
هي اللّغة القادمهْ
هي الشّعراءُ فقطْ

أحبّ الحياة كما لا يحِبُّ الحياةَ أحدْ
ولسْتُ نصيرَ المسيح
ولا حاميَ الحرمين
ولستُ رفيقَ أحدْ

فلا حزْبَ لي غير حزب البشَرْ
ولا لونَ لي غير لونِ الجسدْ
أنا الكلّ في واحدٍ
أنا المتعدّدُ والمتّحِدْ
أنا يوم غدْ
أقاوم مضطهدي وأدافعُ عنْهُ إذا ما آضطُهِدْ
أنا يوم غدْ
لسانُ السماءْ
ومُحامِي الحضارة
أُنصتُ للشعراء إذا ثرْثَرُوا
وأصمتُ أكثر ممّا يجبْ
ولكنّني كلّما ضايقتْني البلادُ
وَطالَبَني جسدي بجسدْ
أخطُّ اعترافي على جُدرانِ البلَدْ:
«أنا الطّفل احتاجُ حُريّةَ للّعبْ
وأحْتاجُ أُنثى لأكشفَ سرَّ اللّهَبْ
وأحْتاجُ في أوّل اللّيل كأساً
وفي آخرِ اللّيل أحتاجُ ربْ»

حزينٌ تماماً كما تشتهيني السّماء
وبي رغبة في عناق العناصر قبل الرّحيل
وَلي دَمْعَةٌ فَوْقَ خدّي
وَبي دَمْعَةٌ تَحْتَ جَفْني
وَبي دَمْعَةٌ في قرارٍ مكين
وَبي غصّةٌ قد تكون القصيدةَ
أَوْ وَهْمَ نَفْسي الجميل
وقَدْ لاَ تكونُ سوى غصّتي الدّائمه

حزينٌ أَعدُّ ديوني وأَحْلاَمِي الذّاويه
وَأُحصي الجسدْ
جَمْرَةً جَمْرَة
الفراشَ الّذي ما نَضَا عنْهُ أَلْوانَهُ الزّاهيهْ
وَالرخام الّذي لَمْ يُضئ لَيْلَةً للحزينْ
حزينٌ أعدُّ ديوني وأَحْلامِيَ الذاويه
وأَحضنُ حَصَّالتي الخاويه
وأَمْلأُهَا بالزّفيرْ

حزينٌ كَمَا ينبغي لأثور
فسبحانَ ربِّي العظيم
هدَاني إلى الحزن طِفلاً
وَعلّمني كيف أخفي دموعي عن العالمين
وكيف أصُوغُ من الحُزنِ لَحْناً يروقُ لَهُمْ أَجْمعين
وَأوحي إلى الرّيح أَنْ شَرّديه
لأَكْتُبَ شعراً جميلْ

* * *

حزينٌ وقد قلت بالأمس:
«إنّي حزين
وإنّي أنا عَبْدُكُمْ فآعبدونِ
وَفُكّوا وِثاقي وَأَخْلُوا سبيلَ الفصولْ
وَحُجّوا إلى حانتي أجمعين
ستختارُ تونس بَعْلاً لَهَا ثُمَّ تُنْكِرُهُ
وَمَنْ يعرف آمرأةً لا تخونْ؟
دَعُونا إذَنْ نَتَدَحْرَجُ مِنْ حْضْنِهَا بالتّوالي
ونَحْلُمُ بآمْرأةٍ لَنْ تكونْ»

حزين كَمَا ينبغي لأكونْ
وَبي رَغبةٌ في السّكونْ
وَبي مَا يدلُّ عَلَى أنّني قادِمٌ مِنْ بعيد
وَمَا أَسْتَدلُّ بِهِ لأَعُودَ إلى حَيْثُ لا تَعْلَمُونْ

وَبي فكرةٌ هائِجَهْ

* * *

حزين مدَّثَرٌ بالحنين
أُحدِّق في شمْعَةٍ لا تُضيءُ سِوَى ذاتها
وَأَشْعُرُ بالخوْف مِنّي ومِمَّا رَسَمْتُ على الورقهْ
وَمن ليل مارِسَ أشعر بالخوفِ . . .
مِنْ ريحِهِ الجَامِحَهْ
تَنُوحُ كَمَا لَمْ تَنُحْ أَبَداً
وتَـدْنُـو من الكـوخِ ، تَـدْنُـو من الرّوحِ ،
تَدْنُو من الجَسَدِ المُسْتكينْ
أَنا خائفٌ أَيّهَا اللّيل لكنْ
قريباً يَحُلُّ الصّباح القديم
وأَرفُضُ أَنْ أَتَـنَـازَلَ عـن فـرصـةِ النّرجسهْ
وأَرفضُ أَنْ أَتراجعَ عَنْ فِكْرةٍ
قد تصيرُ غداً صَرْخَةً بائسَهْ
وَأرفضُ أَنْ يَتْحَسَّسني الضـوْءُ بَعْـدَ ظلاَمِيَ هَذَا
وَأَنْ أَتَشَرَّدَ في مَلَكوتِ النّهار
حزيناً وَمُتّشِحاً بالحنينْ

قريباً يَحِلُّ الصّباح القديم
وأَخْشى التّورّط في الدَّرس وَالمدرسهْ
وأَخشى التّـورّط في عشـقِ تلميـذةٍ ناعسهْ
وأَخشى التورّط في أغنيهْ
وأَخشى الّذي لَنْ يكُونْ
قريباً يحِلُّ الصّباح القديم
وَلاَ فاعِلَ الآنَ إلاّ أَنا
بِدمي وبِخَطّي الجميل
أذيّلُ نَصَّ الوصيّة باسمي
وأَبرزُ للشجره
بِجِسْمٍ ثَقيل وحَبْلٍ متينْ
. . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سَتَبْحَثُ سيجَـارتي عَنْ يَـدَيَّ وعنْ رئَتَيَّ
وتبْحثُ تونسُ عن قِسْطِها في الوصيّه
وَتَبْحثُ روضـةُ عَنْ حَظِّهَا في قَطيـع الذّكور
وَتَبْحَثُ عنِّيَ أُمِّي وَأُغْنيتي والنّديم
غَـداً يعثرون عـلى جسدي يتـدلّى كَمَا ثمرة ناضجهْ

لَقَدْ حَانَ وقْتُ الأفولْ
وَأَحتـاجُ كُـلَّ غُيُـومي لِكيْ لا أَرى سِحْرَ هذا الغسقْ
وَأَحتاجُ كُلَّ جنوني
لأربطَ أُنشوطةَ الحبلِ حَوْلَ العُنُقْ
وَأَحتاجُ كُلَّ الّذي كَانَ . . . أَحْتَاجني لأكُون
أَهُمُّ بِأُنْشوطتي
فَيُراودني العشبُ عن جسدي
ويقولُ لي الحبلُ :
«اقطُفْ مِنَ الغابِ أَكْثَرَ من وَرْدَةٍ
وآتّخذني حزاماً لها»

أَهُمُّ بِأُنْشُوطتي
فَتَرْتجفُ الشجرهْ
وَتَرْفعُ أغْصَانَهَا عالِياً
ويُهيبُ بي الطيرُ أَنْ لاَ أَطِيرْ
لقدْ حَان وقْتُ الأفول
وَإِنّي حزينٌ كَمَا ينبغي لأطير
وأَعْلُو على كلِّ ما هُوَ طين
وَأعلو على الأغنيهْ

تونس